حيـــــاة الرايـــــس

"سيّـــدة الأســـرار"

عشتـــــــار

مسرحيّة \ روائية
الطبعة السابعة

نقوش عربية 2016

الكتاب: "سيّدة الأسرار عشتار"
الكاتب: حياة الرايس
الطبعة السابعة تونس 2016
الترقيم الدولي للكتاب:
978-9938-07-178-8
جميع الحقوق محفوظة للناشر
الناشر: دار نقوش عربية
33، نهج لينين– تونس-1000
الهاتف/الفاكس: 31107929
www.arabesques-editions.net
البريد الإلكتروني:
editionsarabesques.tunis@gmail.com

إهداء أوّل:

إلى جدّتي التي بدأت لي حكاية وهي تهدهدني لأنام. فأخذها النوم وهي في عزّ الحكاية... ولكنها لم تفق بعدها...

إليها أواصل بقية الحكاية التي لن تنتهي لأني سأنام مثلها في عزّ الحكاية...

إهداء ثان:

إلى ابني الوحيد أوس: علّه يغفر لي:

أنني أنجبت له كتبا بدل أن أنجب له إخوة.

مقدمة عزّالدين المدني
نصّ مسرحي متسيّب هائج

هذا نصّ مسرحي جديد، بل هذا نص مسرحي يناقض مناقضة تامّة أو تكاد المسرح السّائد في تونس و في أقطار عديدة من العالم العربي اليوم.
نصّ يجدّف بقاربه ضد تيّار النّهر الهادر، تيّار السّائد، و لكن أيضا تيار اليوم الرّاهن.
التيّار السائّد أن تكتب مسرحيّة اجتماعية، محليّة، ضيّقة المحليّة، لا تهمّ المجتمع بكامله بل تتعلّق بأسرة متركبّة من زوج وزوجة، و من خصام ومن خيانة و من وفاء، و من بيئة محدودة فيها صراع غامض، و من مشكلة تافهة فيها الدفاع عن قواعد أخلاقية رجعيّة، ومن قضايا مطلبيّة، حالكة السواد والمداد فيها صراخ، نشاز و نطق غير مفهوم، من القائل ومن السامع.
كلّا، هذا نص يخالف و يختلف.
إذا ما خالف كلّ ما ذكرناه آنفا و كلّ ما لم نأت على ذكره، و لكن من جنسه ومن وشائجه فلأنّ خطابه أمر آخر، وشكل آخر، و لهجة أخرى.
أقول هذا لأني أعتقد جازم الإعتقاد بأنّ الكاتبة ليست في شيء من قطيع الأغنام و لا تنتمي للحضارة الرعويّة البدائية. فشأنها شأن آخر.

علام هي تكتب مسرحيّة ملحميّة (لا ملحميّة براشت بطبيعة الحال بل ملحميّة سوفوكليس الكاتب و الشاعر الإغريقي الأعظم) ملحميّة طقوسيّة لا واقعيّة دراميّة، لا طبيعيّة، لا رمزيّة، ألغازية، يجب فكّ / تفكيك ألغازها ورموزها، علاماتها، قواعدها المستترة المضمرة؟ لا.

يومنا الراهن دمويّ بامتياز. أنهار من دماء الأبرياء و الظالمين، من دموع الطفولة الجائعة المعوقة من كلّ أمل، من الغضب العاتي لشباب المقاومة، و من شماتة المعتدين المغول الغزاة. كلّهم هولاكو. من قتل العلماء و المثقفين، من وثوقيّة الظلاميّين الذين يذبحون الشيوخ و العُجز و العجائز و الاطفال الرضّع، من لحاهم التي تقطر دما و جهلا و صلفا و شركا بوحدانية الرحمان الذي رحم خلقه منذ الخليقة الأولى، و من تعذيب النساء بلطف حرير الخمار، بشكلانيّة اللباس، بقهر أجسامهن، بإظلام أنوثتهن حتى صار الإسلام في عيونهم و في عيون الآخرين وعقولهم شكلانيا، قاهرا، إظلاميّا، وحشيّا، جَهلَواتيّا.

يومنا هذا الرّاهن ملحميّ. فالصغير هو الذي صغّره فجعله أحدوثة، فكهة، تافهة، و مشكلة عارضة، و قضيّة دراميّة لا تتعلق إلاّ ببيئة أو بشارع أو بحيّ أو بأسرة أو بظروف طارئة لحياة زوجيّة عمياء لأنها غير واعية، جاهلة، حالكة الضمير...

صحيح. قلّة من البشر تحلّل اللّحظة الرّاهنة و ما فيها و ما بعدها من نتائج و، تعي كلّ ذلك،

تستوعبه، تفصلّه في عمل ملحميّ يُقطّع الأجزاء إربا إربا للإيضاح، لكي يعي الآخر، حتى يدرك الآخر بعقله المحلل ما لا يدرك حسّه باللحظة المارّة بالطّيف، بالخيال... .
امرأة تتحدث عن إمرأة... .
أنثى تتحدث عن أنثى هي أنثى كل النساء: الواحدة في الكل و الكلّ في الواحده.
حياة الرايس تروي ملحمة عشتار، عشتار ملحمة جلجامش وفق رواية حياة الرايس في هذا اليوم الرآهن الدموي، وروايتها، مخيالها آت من اليوم الرّاهن و من الامس الغابر، و من حلم الشعراء و أشّعة الأمل البازغ في الآفاق البعيدة التي لا يشيمها إلاّ أهل الرّؤى و سحرة الكلمة و الصّوت و أصحاب الوعي باللحظة الفانيّة.
حياة الرايس لم تكتب نصّا مسرحيّا منتظم الحوار. إنّما كتبت شعرا على شعر متسيّب. نسجت نصا مسرحيّا شعريّا بلا عروض لكنّه بقافية الإيقاع. خروج على المعتاد. دخول في أدغال الملاحم البشريّة: جلجامش، الالياذة، تغريبة بني هلال، الصّاجا الإيسلنديّة، الشاهناميّة، مَطلبُ الجرال، الأوديسه و غيرها كثير... . كتبت كتابة حداثيّة. و لم لا؟ هل نكتب ملحمة بكتابة حداثيّة؟ كأنّ ملحمة و حداثة شيئان متناقضان؟ كلاّ. نحن اليوم لنا منهجنا في الابداع و القول و الخطاب... و هم كان لهم منهجهم. كأنّنا جدّدناه، نزعنا عنه الصّديد صديد الدّهور عنه. ذهب قشيب صار يلمع كالبرق، كالعاصفة، كصراع الأرباب في السمّاء

السابعة و هم على خيولهم المطهمة، نسمع وقع ستابها في دمائنا و ضمائرنا ووعينا بالزمان.
حياة الرايس فخورة بالأنثى من خلال عشتار، أزاء الذّكر. الأنثى عندها لا تخجل من جسمها حين يعرّى. هي تمدحه، تعدّد فضائله و محاسنه ووظائفه و مواقعه قي هذا العالم الإظلامي المقيت و منزلته في منازل الآل و النّور، و عتبات السّمو نحو الحياة و الموت إذا كان للحياة خلود و إذا كان للموت تجدّد من عهد الى عهد و من دهر الى دهر، الى هذا اليوم الراهن الدموي.
هل أحكي لكم عن تقنية هذا النّص المسرحي الملحمي؟ بالدرجة الأولى نص، ثمّ نصّ أدبي، و أخيرا نص مسرحي، ركحيّ، يتجسّم على خشبة المسرح أي على شاشة مخيال الجمهور و يرسب في حافظتهم، و يبقى في ذاكرتهم و ينصرف و يتكشّف في كلّ حين. نص متسيّب، هائج، لا يرجو أن يقبع في قن الأرانب.
ألم نقل نحن يوم شرعنا في كتابة المسرح؟ كلّ نص هو بالأساس نص مسرحي؟ أليس كذلك؟ هل لا بدّ من انتظار حوار و شخصيات و عقدة و حلّ؟ ألا بدّ؟
أكتبي يا حياة لا تبقى إلا حريّة الإبداع. و سلام على الدّنيا.

2004 / 9 / 25

عزّ الدين المدني

الفصل الأول

قصّة البوح

في معبد من المعابد القديمة لمدينة سومر
تستوي عشتار ملكة على عرشها
يشعّ من محيّاها الألق والبهاء
بعدما وضعت على رأسها تاج السهول،
لفت جسدها بطيلسان السلطة،
قبضت بيدها على الصولجان اللازوردي
ومسكت الختم
تطوف بها عذارى المعبد مسدلات غلالاتهن الشفافة على وجوههن، لابسات حللهن الطقوسية، هائمات حبا، فانيات تعبدا
وسط غيمات البخور واللبان المحروق،
يرقصن على إيقاعات نقر يعلو ويخفت،
ينبعث من طبلين كبيرين أمام وصيفتين تجلسان في مقدمة الخشبة واحدة جهة اليمين وأخرى جهة اليسار.
والزوار يسكبون عطر الناردين أمام الإلاهة عشتار المجسّدة في شخص الملكة، يرشون زيت الزنبق عند قدميها ويحرقون العنبر البحري.
يتوافدون محملين بسلال عنب التلال وتفاح البساتين ومشمش الجنائن وبرتقال السهول.

وبإشارة من الإلاهة عشتار : تتوقف كل حركة، تخر العذارى ساجدات. تتقدم وزيرة الإلاهة إلى مقدمة الخشبة:

ـ "اليوم يتوقف كل شاك عن الشكوى وكل داع عن الدعاء وكل ناذر عن النذر وكل متضرع عن أي ضراعة، اليوم تنقلب الأدوار وتتبدل المواقع من أجل سماع قصة عشتار:

مأساة بحجم الآلهة.

من قال إن الآلهة لا تحتاج إلى لحظة بوح؟

ومن قال إن قصص الآلهة أقل مأسوية من قصص البشر؟

عشتار تخرج عن صمتها:
"إمرأة مثلكن أنا
إمرأة من سلالة الآلهة
و إمرأة من نسل النساء
أحببت
فتألقت وتوهجت نيزكا في الظلام
ثم في العالم الأسفل سقطت.

على تموز وقعت عيني
أنا إلاهة الأرض المرحة الشهوانية الشهية
أحببت تموز حبا جارفا
تموز إله النبات وتكاثر الحيوان
على تموز وقعت عيني
في أقصى جنوب سومر ـ في أكاد ـ
أقدس المدن السومرية
انجذب بولع أحدنا إلى الآخر
واتحدنا اتحادا رقيقا
في عناق انتشائي لم ينفصم
طوال أشهر الشتاء الطويلة
كان تموز يرعى في ظل شجرة "الأريدا"
في حقول غير دنيوية
قطيعا لا يراه بنو البشر
كان الإله الشاب يحمي حيوانات
السماء وحيوانات الأرض
يدرأ عنها أخطار أشعة شمس
الظهيرة المحرقة..
هذه الأشعة،
اشتعلت في جسدي حينما
على تموز وقعت عيني...

من أجل لقاء تموز
بالماء البارد استحممت
بالصابون المعطر دلكت جسمي
"طيلسان السلطة"، ارتديت
وقد عرفت كيف أحمل ـ بإغواء كبير ـ
تموز على الاستجابة لدعوتي
كما عرفت كيف أحمل البيت
والحرم الممتلئين بالنشيد
على الابتهاج معي
كان سكان سومر يتوجهون لي بالدعاء
من أجل أن: "أفتح أرحام النساء"
فقررت وتموز أن نقيم مراسم
الزواج المقدس
في مدينة سومر
وكان على جميع النساء الاقتداء بإلاهتهن
أن يتهيأن لعرض
مباهجهن ـ عن رضا ـ لأنظار
الرجال لإيقاظ غريزتهم وحثهم
على التمتع بأجسادهن
وكان على جميع الرجال أن يحتذوا
حذو تموز إله نمو النبات

وتكاثر الحيوان
الذي يخضع لإغواء إنانا
وسحرها.
من أجل نساء سومر ورجالها
أقمنا مراسم الزواج المقدس .

***

قبل لقائي بتموز
كنت قد منحت جسدي
الشهواني، العطش أبدا
جميع الذكور الأحياء فوق الأرض
أما الآن فلم أعد راغبة إلا
في الرجل الوحيد الذي عرفت
الحب في أحضانه
و عرفت ذلك الإحساس (الجديد عليّ)
بالامتلاء والكمال السعيدين لأناي الخاص
ذلك الإحساس الذي لا يمنح إلا
للرجل والمرأة اللذين لم يخلق

أحدهما إلا للآخر
هذا الاشتهاء للواحد المفرد
جعل الإلاهة التي ـ تفتح أرحام النساء ـ
مثالا تحتذيه جميع النساء
فليس بكاف أن تشبع لذة الاتحاد
الجسدي الحواس فقط
بل عليها أن تروي القلب أيضا
وقد روى تموز بالحبّ قلبي
عندما ضمّ قلبه إلى قلبي...
وكلّ معانقاتي قبله لم تكن
تعادل عناقا واحدا من تموز
الذي توّج بالحبّ قلبي
كان تموز الحبيب أغلى من
جميع رجال الأرض مجتمعين
كانت تفيض بحضوره ـ دون سواه ـ
كل حواسي بالأمل والرجاء
وأصبحت تسيطر علي رغبة واحدة
هي وحدها صاحبة الشأن والتحكم بي
رغبة امتلاك الرجل الوحيد الذي أحبّ
والسعادة كل السعادة في البحث عنه
والفوز به و الاستسلام له.

كنت فخورة بأبي ـ سن ـ إله
القمر العظيم، في مدينة ـ أور ـ
إحدى كبريات مدائن سومر
لذلك بعثت له رسالة أنبئه فيها
بنيتي التزوج من تموز
أردت أن أستشير ـ سن ـ
قبل أن أهب نفسي
لعاشقي في شوق وفي معبدي
ـ جيبار ـ
كنت أحبّ أميّ ـ ننجال ـ كثيرا
وأعمل بنصيحتها، ولكن أحيانا كنت
أخادعها
حدث ذلك، بناء على طلب من
عاشقي تموز، لكي أمكث معه
في الجنائن، على ضوء القمر...
في الليلة الماضية
حينما قادني "تموز" إلى بستانه
أدخلني إلى جنينته
تمشيت معه بين أشجارها الباسقة
وتوقفت معه عند أشجارها الممتدة

ثم جثوت كما يجب عند شجرة التفاح
في الليلة الماضية ناجيت القمر
أنا إلهة الزهرة أيضا

ترنيمة

"في الليلة الماضية فيما كنت أنا
الملكة أشعّ ضياء
في الليلة الماضية فيما كنت أنا
ملكة السماء أشعّ ضياء
كنت أشعّ ضياء، كنت أرقص طربا،
كنت أترنم بأنشودة على اقتراب
الضوء الساطع
التقى بي، التقى بي،
تموز وضع يده في يدي
تموز، أنا ضمّني إلى صدره"
ادّعيت التخلص من ذراعيه
لم أكن أعرف ما أقول لأمّي
ناديته: "تعال الآن أيها الثور البرّي
خلّصني، يجب أن أذهب إلى البيت
ماذا عساي أن أقول لكي أخادع
أمّي ننجال؟"
لكنّي كنت سعيدة حين جاءني جوابه،
أنا المعروفة بالمكر والخداع:
"فلأخبرك، فلأخبرك

أي "إنانا" يا أكثر النّساء خداعا،
فلأخبرك
قولي إن صديقتي اصطحبتني معها
إلى السّاحة العامة
حيث سلّتني بالموسيقى والرقص،
وغنت لي أغنياتها الحلوة،
في الابتهاج الحلو قتلت الوقت
هناك،
بذلك تواجهين أمّك، في خداع
بينما نحن كنا على ضوء القمر
ننغمس في شهوتنا
سأعدّ لك فراشا طهورا، حلوا، نبيلا،
سوف أقضّي معك وقتا حلوا في فرح
غامر"
حين استذاق تموز نكهة الحبّ معي،
قطع لي عهدا أن يجعل منّي زوجته
الشرعيّة
حينها جريت إلى أمّي
وأنا أنشد:
"أتيت إلى بوابة أمّنا،
أنا، جذلانه أمشي،

أتيت إلى بوّابة ننجال،
أنا جذلانة أمشي،
إلى أمّي سوف يقول الكلمة
سوف يرش زيت السرو على الأرض
هو الذي مسكنه يفوح عطرا
هو الذي كلمته تبعث فيّ السرور والزهو
سيّدي الذي يليق به الحضن
المقدس،
تموز صهر ـ سن ـ
الإله تموز يليق به الحضن المقدس
تموز، صهر ـ سن"
لم أنس ـ سن ـ
كنت فخورة بأبي ـ سن ـ
إله القمر العظيم في مدينة ـ أور-
لم أنس أبي ـ سن ـ كنت أشعر
بحاجة أن ألتمس موافقته قبل أن
أهب نفسي لعاشقي.
إليه أرسلت رسالة أنبئه فيها بنيتي
التزوج من الرّاعي تموز.
كتبت له:

"بيتي، بيتي
الناس سوف يقيمون فراشي المثمر
سوف يغطونه بشجيرات حجر الآزورد
ـ الدورو ـ
سوف آخذ إلى هنالك تموز
سوف يضع يده في يدي
ويضم قلبه إلى قلبي
وضعه اليد باليد ـ ينعش الفؤاد،
ضمه القلب إلى القلب.
لذّته بالغة السعادة .

الفصل الثاني

مراسم الزواج المقدس

قبل أن ندخل طقس العرس الإلهي،
المقدس
إلى بيت أمّي كان يجب أن
يأتي العريس لخطبتي
إلى أمّي ـ ننجال ـ سبقته ألتمس
النصح والموافقة
قرع ـ تموز ـ باب بيت أمّي، حاملا
معه هدايا اللبن والقشدة والجعة
ملتمسا منها القبول .
ابتهجت لمقدمه أمّي وأنشدت :
"هو ذا الفتى هو أبوك
هو ذا الفتى هو أمّك
أمّه تدللك كما تدللك أمّك .
أبوه يدللك كما يدللك أبوك .
افتحي البيت، أي مليكتي افتحي البيت"
إلى العرس المقدس أمّي كانت قد أعدّتني
إلى لقاء تموز، زوجي الموعود،
أعدّتني
يما يليق بملكة سومرية .
بماء الإبريق المقدس استحممت
بالصابون دلكت جسدي،

في الطست الأبيض اغتسلت ،
بالعنبر طليت ثغري ،
بالكحل كحّلت عينيّ ،
بالحجارة الكريمة والمجوهرات والحلي
زيّنت أمّي مختلف أنحاء جسدي
ومن كنز أهداني إيّاه أحد عشاقي
انتقيت حجر الآزورد لصدري وعنقي،
وخرزا بيضاوي الشكل لردفي ورأسي،
ورصّعت بحجر الدّر ظفائر شعري .
وبالأقراط البرونزية زيّنت شحمة أذني.
ومختلف أنواع الحلي لوجهي وأنفي
و عجيزتي،
و الأبستر اللامع لسرتي
والخفين لقدميّ .

في بلاط القصر الملكي
الذي يشرف على شؤون كل البلاد،
بيت ملك جميع العباد
ـ بيت الحياة ـ
ليلة رأس السنة .
في"إيريك" إحدى كبريات مدن سومر
اخترنا أن يكون الزواج المقدس
أقام العبيد سريرا من خشب الأرز والأسل
نشروا عليه شراشف فريدة النوع،
تبهج القلب، و أعبقوا البخور .
رشوا الأرض بالزيت المعطر
وفي وسط القصر أقيمت المنصة الملكية
و اجتمع الناس ذوو الرؤوس السود .
تموز كان مجسّدا في شخص الملك.
ملك ـ إيريك ـ العظيم وقد بدّل
بملابسه ملابس الطقس المقدس،
و اعتمر الجمّة تاج الملوك،
فتلألأ نوره مشّعا في القصر .
أمّا أنا فلمّا أكملت زينتي واتخذت
زخرفي أمسكت الختم بيدي

ولففت طيلسان السلطة حول جسدي.
حينها قام كهنة الطقس الحرم ـ
لابسو الكتّان ـ
بالإعلان عن مقدمي إلى تموز،
الذي كان واقفا بباب حجر الأزوردي
يتحرّق شوقا و اشتهاء للقائي .
يدعونه إلى الاقتراب مني
من إنانا ملكة السماء والأرض
من حرمها حيث ينتصب
ـ إنليل ـ كبير آلهة الهيكل السومري.
وينشدون :
"سيّدي، أنت الذي قدمت إلى
الحرم، أدن منها،
أدن منها،
بأغنية،
بلحن يحرّك القلب "
ثم قامت ـ ننشبور ـ وزيرتي،
الأمينة لتقود الملك إلى عروسه،
ملتمسة منّي أن أباركه بكل ما يلزم
لكي يكون حكمه سعيدا ومذكورا .
حينما دخل تموز، طلع

نوره في الحرم مثل القمر،
حدّق فيّ بفرح يغمره، ضمّني
إلى صدره وقبّلني فباركته
بدعائي المعهود:
" أيّها الثور البرّي، يا عين البلاد
ـ سوف آتي بالحياة إلى أهلها
سوف ألبي جميع حاجات البلاد
وأحمل أهلها على إقامة العدل،
في البيت الفخم
وأجعل بذرها ينطق كلمات
العدل في البلاط "
باركته والبيت والحرم ممتلئان
بالنشيد مبتهجان معنا
والشعراء يتغنون على لسان تموز
الذي كان يتحرق اشتهاء إلى فراش
الزفاف المقدس :
ترنيمة :
"يتشهاه، يتشهاه
يتشهى الفراش
الذي يُبهج القلب، يتشهى الفراش
الذي يحلو به الحضن، يتشهى الفراش

أن تجعل الفراش حلوا
أن تجعل فراش الملك حلوا
أن تجعل الفراش الذي يحلو به
الحضن حلوا
أن تجعل الفراش الذي يحلو به
الحضن حلوا "
كان تموز قد أمر أن يُطهّر فراش
الليلة السعيدة بجرار مليئة بالأسل والأرز
ليكون عذبا ومثمرا .
وبكلمات تقطر عذوبة ورقة
استقبلت عريسي بترنيمة العرس :
"أيا العريس...يا غاليا على قلبي
ما أروع جمالك، حلوا كالعسل
أيّها الأسد... يا غاليا على قلبي
ما أروع جمالك حلوا كالعسل
لقد هززتني... دعني أرتعش واقفة أمامك
أيها العريس... دعني أمنحك الحبّ
فحبّي شهيّ، أشهى من العسل
وفي المخدع الجميل ...
دعنا نستمتع بجمالك الأخاذ .
ولأنك تحبني، امنحني حبّك الممتع

يا سيّدي...وحامي ذماري
تلطف و امنحني حبك الممتع ."
ثم على السرير المقدس تمددت
بعد أن خلعت وشاح عرسي
فيما رش زيت الأرز المعطر على
الأرض ليمشي عليها الملك رافع الرأس
في السرير المقدس قال لي :
"أريد أن ألعب معك لعبة الحبّ
في ضوء القمر
فوق سرير العظمة والخيلاء
أريد أن أحل عقدات شعرك "...
ثم احتوى براحته خاصرتي ليلاطف
بالحب الحضن القدسي و يمسّده
باللبن والقشدة
مفتونا بهبات ثديي،
توّاقا إلى الخلود
بالالتحام الجسدي معي .
وبعد أن نظفت الحضن القدسي،
رحت ألاطف سيّدي
وقدرا جميلا أكتب له
وقد ضمّ قلبه إلى قلبي

اتحدنا وتعاشرنا وفاض "ماء القلب "
فشاعت الخضرة في كلّ ما حولنا
الزرع طلع عاليا بجانبه
والبساتين أزهرت خصبا بجانبه "
وتموز عشيقي الأبدي يتمرّغ على صدري
"أي مليكتي العظيمة، صدرك هو حقلك،
أي إنانا، صدرك هو حقلك
حقلك الفسيح الذي يدفق بالزرع
حقلك الفسيح الذي يدفق بالحبّ
الماء يدفق من الأعلى ـ ربّاه ـ الخير
من الأعلى
سوف أشربه منك ."
فقام الناس يتغنون بجسدي
ويشبهونه "بقارب السماء "
و"بالهلال الجديد" "وبالأرض الخصبة"
والحقل العالي والرابية
وبعد أن استرحت طويلا على
"السّرير المثمر "
والحضن القدسي
رُفعت إليّ الالتماسات لأبارك
الملك في ليلة الحبّ :

"الشمس ذهبت لتنام، النهار انقضى
فيما أنت في السرير تحدّقين فيه
فيما أنت تمسدين الربّ
فيما أنت تمنحينه الحياة
امنحي الرّب الصولجان و المحجن "
في الصّباح منحته الصولجان و المحجن
لأنني اخترته راعيا من بين البشر
وجعلته ملكا
كان ذلك في مأدبة أقيمت
في قاعة الاستقبال الكبيرة
في القصر حيث كان الطعام الكثير
والشراب والموسيقى الصادحة والغناء
فيما يمرّ الناس أمامنا :
أمام الزوجين الإلهين
الجالسين جنبا إلى جنب على العرش
ينشدون :
"لعل الرّب الذي دعوته إلى قلبك،
الملك، زوجك الحبيب، يتمتع بأيام
مديدة على حضنك الحلو، المقدس
امنحيه حكما عظيما مجيدا
امنحيه عرش الملك على أساس مكين

امنحيه القدرة على تدبير شؤون
الناس: الصولجان و المحجن
امنحيه تاجا لا يبلى وإكليل نور على رأسه
من حيث تطلع الشمس إلى حيث
تغرب الشمس
من الجنوب إلى الشمال
من البحر الأعلى إلى البحر الأسفل
لعل النهر يفيض
وفي الحقل يكثر الحبّ
لعل الغياض تنتج عسلا ونبيذا
وفي دجلة والفرات يكون فيض الماء
وعلى الضفاف ينبت العشب عاليا
ويملأ المروج
وملكة الخضرة المقدسة تجمع الحبّ
أكواما وتلالا
أي مليكتنا ملكة السماء والأرض
لعله يستمتع بأيام مديدة على
حضنك المقدس "

الفصل الثالث

النزول إلى العالم الأسفل

العالم الأسفل :
عالم مظلم من القبور والأشباح ...
شموع ترتعد: تشتعل وتنطفئ
تلوح ـ أريشكيجال ـ ملكة العالم الأسفل
مستوية على عرشها
يحيط بها ـ الأنونا ـ: القضاة السبعة"

لقد كنت، شهيّة،
أيقظت بمداعباتي
طيلة ليالي العرس شهوانية
تموز الراعي اليافع
وغدا بفعلها رجلا ...
فأراد أن يبرهن لي عن رجولته
في الصيد والطرد كما برهن عليها
في فراش الحب والمتعة ...
وفي إحدى مطارداته
أصابه خنزير بري بجرح مميت
كنت أحب تموز
وكنت مستعدة لكل المخاطر من أجله
لكي أبرهن لكل الناس
أن على المرأة العاشقة
أن تقبل كل التضحيات
لكي تفوز بالرجل الحبيب وتحتفظ به
وعليها بدافع الحب ألا تتراجع
أمام المخاطر مهما بلغت
ولو كانت الموت نفسه
ولذلك شرعت بارتياد طريق الجحيم
لأبعث في تموز الحياة من جديد

بتحميمه في الينبوع المقدس .
اعتزمت النزول إلى العالم الأسفل
بيت الأموات المخيف المظلم من أجل
استعادة تموز حبيبي وزوجي .
لكن الناس لم تقدر تضحيتي .
واتهموني بأني لم أكن لأكتفي
بمملكة "الأعلى العظيم" بل أردت
أن أبسط نفوذي أيضا على
"الأسفل العظيم".
أجمل ملابسي لبست
بأحلى حللي تزينت
على شاراتي وسلطاني وامتيازاتي
المقدسة قبضتُ
"ألواح الأقدار السبعة"إلى وسطي شددت
كل النواميس جمعتها ووضعتها في يدي
الناموس الأعظم أقمت عند قدمي ،
"الشوجرا" تاج السهول وضعت على رأسي
فشاع من محياي الألق والبهاء
خصل شعري ثبّتها على جبيني
صغير حجر اللآزورد ربطت حول

عنقي
حجرين بيضاوين شددتهما إلى صدري ،
بسوار ذهبي طوقت معصمي
بخاتم ذهبي رصعت كفّي
صفيحة الصدر: "تعال أيها الرجل تعال "
ربطتها حول عنقي
بالزيت والطيوب مسحت وجهي
وبدهن "فليات" دهنت عينيّ
بثياب السّيادة والطيلسان
وشحت جسدي .
عندما أكملت زينتي وعزمت على النزول
إلى العالم الأسفل ـ عالم الأشباح الرهيب ـ
كان البدر قد اكتمل
في منتصف الشهر القمري
وتربّع على عرش السماء بكامل ألقه وبهائه
كما تربعت تماما:
أنا ملكة السماء وإلهة القمر على العرش
بكامل ألقي وبهائي .
ولأن القمر لا يكتمل إلا لكي يهبط
متناقصا خلال النصف التالي
من دورته كذلك اتخذت أنا كامل زينتي

استعدادا للهبوط إلى ـالعالم الأسـفل ـ
كنت أعلم قبل الدخول
أن"أريشـكيجال "
ملكة "العالم الأسـفل" أختي وعدوّتي اللّدود
ستقتلني لجرأتي على اقتحام عرشـها
ولن تغفر لي مجيئي إلى الاقاليم
السـفلية
لذلك اسـتدعيت وزيرتي و رسـولتي
ننشـبور ـ التي كانت دائما رهن
إشـارتي
وقلت لها :
"أنت يا سـندي الدائم
يا وزيرتي ذات الكلمات الحق
يا حاملة رسـالة كلماتي الصحيحة
أنا الآن نازلة إلى العالم الأسـفل
بعد أن أكون قد وصلت إلى العالم الأسـفل
أقيمي المناحة عليّ عند الأطلال
في حرم المجمع
اقرعي الطبول من أجلي
مزّقي عينيك من أجلي
شـقّي فمك من أجلي

مثل فقير ارتدى ثوبا باليا من أجلي
إلى ـ الإيكور ـ بيت إنليل ـ وحيدة
صوبي خطاك .
عند دخولك ـ الإيكور ـ بيت إنليل
انتحبي أمام ـ إنليل ـ كبير الآلهة :
ـ"أبتي إنليل
لا تدع إبنتك تموت في العالم الأسفل
لا تدع معدنك الثمين يعلوه غبار
العالم الأسفل
لا تدع لازوردك الغالي يتكسر كحجر الحجارين
لا تدع بقسك ينشر كخشب النجارين
لا تدع العذراء إينانا تموت في العالم
الأسفل "
أوصيتها أيضا :
"إن لم يقف "إنليل "إلى جانبك في هذا الأمر
طوفي بالآلهة الأخرى
إن لم يستجيبوا لك
اذهبي إلى الاله "إنكي"...انتحبي أمامه ...
فالأب "إنكي" ربّ الحكمة الذي
يعلم " طعام الحياة" ويعلم "ماء الحياة "
لا بدّ وأن يعيدني ثانية إلى الحياة.

لقد أردت بذلك أن أطمئن
إلى تجدد حياتي وبقائي
حيّة حتى لو نزلت بي أفدح الأخطار.

بعد ذلك توجهت إلى بلاط العالم
الأسفل
و انتصبت جريئة أمام بوّابته :
ـ"افتح يا حارس البوابة، افتح البيت
افتح البيت يا ناتي، بمفردي أريد الدخول "
فجاءني صوته متسائلا :
"رجاء، من أنت؟ "
أجبته باعتزاز :
"أنا ملكة السماء، المكان الذي
تشرق منه الشمس "
لكن البوّاب يخامره ريب في أمري :
"إن كنت ملكة السماء حقا، المكان
الذي تشرق منه الشمس. فلماذا أتيت
رحماك إلى بلاد الّاعودة،
إلى الطريق
الذي من سافر إليه لا يعود أبدا،

كيف قادك إليه قلبك؟ "
عندئذ تذرّعت بالقول :
"أختي الكبرى أريشكيجال ...
لأن زوجها الرّب ـ جوجالانا ـ قد قتل"
جئت لأشهد مراسم الدفن،
فليكن كذلك؟ "
لكن هذه الذريعة لم تبدّد شكوك ـ ناتي ـ
طلب مني أن أتريّث حتى يكلم
سيّدته "أريشكيجال "
نفد صبري اشتدّ بي الغضب
فصرخت
"أنا ربّة السماء يجب ألاّ يردّ لي طلب
أي حارس البوابة، افتح بوّابتك
كي يتسّنى لي الدخول، فإذا أحجمت
عن فتح بوابتك لتمنع دخولي
فسأهشم الباب، سأحطّم المزلاج،
سأهشم عضادة الباب،
سأهز الأبواب،
سأوقظ الموتى من سباتهم ـ آكلي الأحياء ـ
حتى يفوق عددهم عدد الأحياء "

يرتعد الحارس أمام عصف الغضب
الذي أثرته في وجهه،
يدخل بيت مليكته
يصف لها ملبسي وهيئتي تماما
مثلما أنا :
الناموس، الشوجرا، الصولجان
حجر اللازورد، صفيحة الصدر، السوار الذهبي
خصل الشعر، دهن الإغواء
ما إن سمعت أريشكيجال هذه الأوصاف
حتى علمت على الفور من هي
التي حاولت أن تحطم بوّابة مملكتها
ولماذا :
استبد بها الغضب، لكنها تماسكت
وقالت: (وقد أضمرت شرا)
"أنا أيضا أندب الرجال الذين
انفصلوا عن زوجاتهم وأنا أيضا أندب
النساء اللواتي انتزعن من أحضان
أزواجهن "
ولكن رغم هذه الشفقة المصطنعة
التي عبّرت

عنها هذه الكلمات، لم تستطع
أريشكيجال إعفائي أنا ـ انانا ـ
ملكة السماء والأرض من المعاناة
وذلّ العذاب الذي يقتضيه الدخول
إلى العالم الأسفل
وفق ما جاء في الشرائع القديمة
إذ كان عليّ أن ألج عارية مملكة
العالم السفلي .
ضربت أريشكيجال على فخذها وقرصته :
ليس ثمة إلا مخرج واحد :
يجب أن تموت "إنانا "
لكن هذه لن يصيبها شيء
إلا إذا نزع عنها طيلسانها
وجواهرها وزينتها وصولجانها،
لذلك قالت للبواب :
"تعال، يا ناتي، يا كبير حراسي
على العالم الأسفل، الكلمة التي آمرك بها
إياك أن تغفلها :
عن أبواب العالم السفلي السبعة
ارفع المزلاج
عن أحد قصوره ـ جنزير ـ واجهة

العالم الأسفل
ارفع المزلاج "
ناتي كبير حراس أبواب العالم
الأسفل أصغى إلى كلمة مليكته .
عن أبواب العالم السفلي السبعة،
رفع المزلاج
عن أحد قصوره ـ جنزير ـ واجهة
العالم السفلي
فتح الباب وصاح :
"تعالي إنانا، ادخلي "
وضعت رجلا جريئة ودخلت
ولم أكد ألج البوّابة الأولى حتى خلع
عن رأسي
"الشوجرا" تاج السهول
صحت: ما هذا الذي تفعلون؟
قال البوّاب:
"أي إنانا لقد صيغت قوانين
العالم الأسفل بعناية و اكتمال،
فلا تناقشي
يا إنانا شعائر العالم الأسفل "
لدى ولوجي البوابة الثانية

اقتلع من كفي صولجان القياس
وسلك اللازورد .
صحت بالبواب
"رحماك ما هذا؟ "
"صمتا ـ إنانا ـ نواميس العالم
الأسفل نواميس كاملة، يا ـ إنانا ـ،
إياك أن تزري بمراسم العالم
الأسفل".
في البوابة الثالثة
نزعت مني حجارة اللازورد
والحجرين البيضاوين
والسوار الذهبي
وصفيحة الصدر
أما في البوابة الرابعة فقد التقطت
عن صدري
الجواهر المتلألئة
في البوابة الخامسة
استل من يدي الخاتم الذهبي
في البوابة السادسة
نزع عن صدري الدرع
في البوابة السابعة

رفعت عني جميع أثواب
السيادة والسلطان
وكنت كل مرّة أصرخ فيهم
ما هذا الذي تفعلونه؟
يجيبونني
أي إنانا لقد صيغت قوانين
العالم السفلي بعناية واكتمال
فلا تناقشي يا إنانا شعائر العالم الأسفل
إلى أن انحنيت
أنا مليكة العالم الأرضي
وجيء بي خفيضة عارية تماما
أما وقد جيء بي عارية تماما فقد
حانت لحظة معاقبتي على خرق
القوانين الإلاهية
أريشكيجال كانت مستوية على عرشها
يحيط بها ـ الأنونا ـ: القضاة السبعة،
نطقوا الحكم أمامها
سلطت أريشكيجال عينيها: عيني
الموت، عليّ، نطقت الكلمة بحقي:
كلمة الغضب
التي تعذب الروح،

صدرت عنها الصيحة بوجهي :
صيحة الإدانة،
لكن الحقيقة التي تعرفونها
وتعرفها كل إمرأة: أن اريشكيجال
أختي وعدوتي اللدود غارت
من جمال جسدي
عندما نضا الحارس عنّي ثيابي
وعرّاني وجردني من حليّي
ونزع النّقاب عن كاهلي
أنتم تعرفون جمال جسدي العاري
لقد أثار غيرة سيّدة العالم الأسفل
أريشكيجال
فأوعزت للمحكمة ـ محكمة العالم
الأسفل ـ
بإصدار عقابها بالضرب والسجن
سجنتني في غرفة من غرف قصرها
ليذبل جمالي وتذهب كل الأمراض
الممكنة بحسني وبهائي
لقد أطلقت أريشكيجال ضدي ستين علّة.
أطلقت علل العيون ضدّ عينيّ
علل الأضلاع ضدّ أضلاعي

علل الأحشاء ضدّ أحشائي
علل الرأس ضدّ رأسي
علل القلب ضدّ قلبي
ضدّ كل أجزاء جسدي أطلقت العلل
أذعنت لكل ذلك بدافع حبّي لتموز
راضية بجميع هذه الأوجاع والآلام،
تحولت إلى جثة هامدة .
شُدّت الجثة إلى وتد مغروس
بيد أنّ هذه المصائب لم تنزل بي وحدي
إذ توقفت كل مظاهر الحياة فوق الأرض
فامتنع الإنسان والحيوان عن التزواج
و الاقتران: ما من رجل يطارد الفتيات ...
لا ثور يقفز على بقرة
لا جحش يحمّل أتانا. وفي الشارع
لا يُخصب الرجل الصبيّة
والنساء يضطجعن وحيدات...وكل
الأفراح الجنسية انطفأت ...
وفي السماء تناقص البدر قطعة قطعة
وانحدر عن وسط السماء تدريجيا
في كل ليلة،

إذ وافقت درجات الموت السبع
التي خلعت عندها زينتي جزءا جزءا
الأيام الأخيرة السبعة من الشهر
القمري حيث فقد القمر بوضوح
أجزاءه حتى غاب تماما في آخر يوم
عندما أُرديت جثة هامدة
حينها حزن النّاس فوق الأرض
وقد كانت وزيرتي- ننشبور- تنتظر
نافدة الصبر أن تعود سيّدتها
من العالم الأسفل
مرّت سبعة أيام وسبع ليال ولم أفلح
في العودة فبدأت ننشبور بتنفيذ
التعليمات حسب ما أوصيتها واحدة
إثر أخرى ...
ترنيمة :
"رسولتي ننشبور
ذات الكلمات الطّيبة
وحاملة كلماتي الحقّ
بدأت الطواف على الآلهة الأخرى
منتحبة، ملأت السماء صراخا من أجلي،
باكية ندبت وجهها في حرم المجمع،

راكضة في بيت الآلهة هنا هناك من أجلي
اكفهرت عيناها وعبس فمها من أجلي
وكفقير، شريد مجرّح الجسم،
لبست ثوبا واحدا من أجلي
و إلى معبد"إيكور" بيت "إنليل"
اتجهت وحيدة بكت في حضرته
"أيها الأب ـ إنليل ـ
لا تدع ابنتك تموت في العالم الأسفل
لا تدع معدنك الغالي يعلوه غبار في
العالم الأسفل
لا تدع لازوردك الغالي يكسر كحجرالحجارين
لا تدع بقسك ينشر كخشب النجارين
لا تدع العذراء إنانا تموت في العالم الأسفل "
لكنها لم تجد من إنليل أذنا صاغية
"إنليل"، كبير الآلهة لا يكنّ لي
عطفا خاصّا، فأنا في نظره قد أزرت
بناموس الآلهة ولم أكتف بحكم
"الأعلى العظيم "
بل طمعت في حكم " الأسفل
العظيم" أيضا
"إنليل" يتجاهل تضحيتي من أجل تموز

ثم تمضي وزيرتي ننشبور إلى معبد
ـ أكيشنوجال ـ في مدينة -أور- وتعيد
تضرّعها أمام بقية الآلهة، ولكن
ما من مجيب كلهم يعتقدون أنني
أزاحم ـ أريشكيجال ـ في قيادة
"العالم الأسفل ."
في نهاية المطاف تصل إلى معبد
"إنكي " في مدينة- أور- أيضا .
إله الماء العذب الذي يسرع إلى
نجدة الإلاهة الميّتة،
وقد أصابه الروع والهلع
من احتمال زوال البشرية
ترى من سيتقدم إليه بالدعاء
والعبادة إن وقع ذلك؟
الأب "إنكي" يجيب ننشبور :
"ماذا جرى الآن لإبنتي؟ إنّي قلق
ماذا جرى الآن لإنانا؟ إنّي قلق
ماذا جرى الآن لسيّدة جميع البلاد؟
إنّي قلق "
إنّ الإله ـ إنكي ـ موكل بـ "طعام الحياة"
و"ماء الحياة " اللذين يعيدان الحياة

إلى الآلهة .
كان لا بد من وضع خطة للوصول إلى أريشكيجال وكسب ثقتها والحصول منها على وعد دون أن يساورها شك ...
كان " إنكي" على دهاء كبير وتملق مكين ...
لقد عمد الإله ـ إنكي ـ الذي يسكن الأعماق المائية إلى خلق كائنين إثنين
لا جنس لهما من طين أظافره :
ـ كوجارو ـ وكلاتور ـ
أعطى " لكوجارو" طعام الحياة
وأعطى لـ "الكلاتور" ماء الحياة
ودعا لهما بالتسترحتّى يدخلا بوّابة العالم السفلي
دون أن ينتبه إليهما أحد
لقد أعلمهما أنهما سيجدان الإلهة أريشكيجال ـ راقدة
عارية تئن من المرض وأوصاهما أن يبديا لها شفقة وعطفا:
قال لهما :

"اذهبا، مُدّا قدميكما نحو العالم
الأسفل
حُوما حول الباب كالذباب
دُورا حول الباب كما يدور المحور .
الأم الواهبة للحياة، بسبب أولادها
أريشكيجال طريحة الفراش من مرض .
على جسمها القُدُس لا يُمَدّ قماش،
صدرها القدس مثل قارب شاجان،
شعرها كالعلق موضوع على رأسها
عندما تصيح :
"ويلي ! آه أحشائي "!
قولا لها: " آه أحشاؤك "!
عندما تصيح :
"ويلي آه أطرافي "
قولا لها: "آه أطرافك " !
عندئذ تقول لكما: "كونا من تكونان "
لأنكما قلتما "من أحشائي إلى أحشائك،
"من أطرافي إلى أطرافك ."
إن كنتما الاهين فسأنطق بكلمة
كريمة من أجلكما
وإن كنتما بشرين فسأكتب قدرا

ملائما لكما
فاستحلِفاها بالسماء والأرض
أن تفي بوعدها مهما كان !
من النهر سوف يأتونكما بالماء فلا تقبلاه،
من الحقل سوف يأتونكما بالحَبّ فلا تقبلاه
"إعطاء الجثة المعلقة من المسمار"
قولا لها
نفّذ المخلوقان تعليمات "إنكي" بكل حذافيرها
تأوها مع أريشكيجال كما لو كانت آلامها
قد مسّتهما مسّا عميقا
تأثّرت أريشكيجال بمشاركتهما آلامها،
وقرّرت أن تنفّذ لهما طلبهما
قدمت لهما جثتي: جثة إنانا
المقدسة .
لما رأيا الجثة المشدودة إلى وترها،
وجها أشعة النار ورشا عليها من ماء
الحياة ستّين مرّة ومن طعام الحياة
ستين مرة .
وما إن مسّني ماء الحياة وطعام الحياة
حتى عادت إلي الحياة ،

نهضت .
ولما مسكا بي ليصعدا إلى العالم الأعلى،
رفضت أن أغادر العالم الأسفل إلى عالم الأحياء
حتى آخذ وعدا ببعث تموز من بين الأموات ويعود إليّ حيّا.
ـ تموز ـ الذي نزلت من أجله عالم الأموات وتحمّلت كل العذابات
والإهانات والذّل من أجله بل تحولت إلى جثة هامدة من أجله .
فأنا ما نزلت إلا لفكّ أسره طيلة فترتيْ الخريف والشتاء
كانت أريشكيجال أختي وعدوتي اللّدود
تخبئ لي المفاجأة التي قتلتني مرة أخرى
لقد أعلمتني أريشكيجال أنها أطلقت سراح تموز، حبيبي، قصدا، عندما كنت جثة هامدة.

أطلقت سراحه ليرتع في المروج
ويعزف الناي لامرأة غيري .
تمكّن المخلوقان من إعادتي
إلى الحياة
كنت على وشك الخروج
لولا تلك العقبة التي يبدو أن "أنكي"
الحكيم قد فاتته ملاحظتها
والتحسب لها .
ناموس سماوي رسم منذ أقدم
الأيام :
أنّ ما من أحد حتى لو كان إلاها
يستطيع أن يغادر العالم الأسفل سالما
إلا أن يحل محلّه آخر
وهكذا بينما كنت أهمّ
بالصعود من العالم الأسفل إذ بـ
"الأنوناكي "
أمسكوا بي قائلين
"إن كانت" "إنانا" تريد الصعود من
العالم الأسفل فعليها أن تقدم
شخصا آخر رهينة بدلا عنها ."

لم يكن أمامي إلا إبداء استعدادي
لتنفيذ هذا الشرط لكي يسمح لي
بالمغادرة. ولضمان تنفيذ الشرط
أرسلت أريشكيجال معي عفاريت
"الجلا" التي لا تعرف الشفقة
لجرّ البديل إلى عالم الظلام.
أو أن يعيدوني
بالقوة إلى العالم الأسفل إن أنا لم
أف بوعدي .

الفصل الرابع

موكب العفاريت

خرجت في موكب من العفاريت والأشباح
صعدنا جمْعا يسير إلى مدينتي
"إيريك "
يتقدمني العفاريت وهم :
"الجلا "الصغار" بحجم قنا الرمح
"والجلا" الكبار" بحجم قنا السياج
التصقوا بخاصرتي
الذي كان أمامي وإن لم يكن وزيرا
فإنه يحمل صولجانا بيده
والذي كان إلى جانبي
وإن لم يكن رسولا
فقد شدّ مدقّة الحسك إلى خاصرته
الذين تقدموني كانوا مخلوقات
لا تعرف الطعام ولا الشراب
ولا تأكل خبز التقدمات ولا تشرب
خمر القرابين،
تخطف الزوجة من حضن زوجها
وتنزع الطفل من صدر مرضعته .
وكان أول من صادفته في مسيرة
هذا الموكب
ننشبور وزيرتي، المخلصة التي

لم تكد ترى سيّدتها عائدة من
العالم الأسفل وإلى جانبها مسوخ ـ
الجلا ـ حتى ارتدت ثياب الخيش
وجثت على ركبتيها معفرة وجهها
بالتراب .
أمسك العفاريت بها متلهفين للقبض
عليها بديلا عني
أوقفتهم قائلة :
"هذه وزيرتي ذات الكلمات المخلصة
رسولة كلماتي الصحيحة
التي لم تخفق في تنفيذ تعليماتي
ولم تغفل كلمة نطقت بها "
ثم ذكّرتهم بانّها هي التي طافت
المعابد معبدا إثر معبد
والدموع تسيل من عينيها
تسترحم الآلهة أن ينقذواسيّدتها
من براثن أريشكيجال إلى أن
استجاب أنكي أخيرا إلى توسلاتها.
خاب أمل العفاريت في المسعى
الأول مع "ننشبور"

وخابوا في المسعى الثاني
مع إبني" لولال" وكانوا كلما التقوا
بواحد من حاشيتي عرضوا عليّ
خطفه فداء لي فكنت أجد لكل واحد
صنيعا يشفع له .
إلى أن بلغوا "إيريك"
مدينتي العظيمة
وبقعتها المقدسة "كلاب "
هناك وجدت زوجي "تموز" مرتديا
حلّة فاخرة جالسا فوق عرشه الرفيع،
ينفخ نايه لامرأة غيري
لا يبكي ولا ينتحب ولا يعفّر
وجهه بالتراب حزنا على زوجته
التي يحطّم القلب منظرها،
وهي محاطة بالعفاريت والغيلان .
خلعني الغضب
سلطت عليه عيني: عين الموت
نطقت الكلمة بحقه: كلمة الغضب .
أطلقت صيحة في وجهه: صيحة
التأثيم
التفتُّ إلى ـ الجلا ـ :

"أما هذا... فخذوه "
أسلمته بيدي إلى أيديهم
كان ـ الجلا ـ ينتظرون ضحيتهم
بصبر نافد
وحين وقع " تموز" بأيديهم
شدوا وثاقه وأوسعوه ضربا وتعذيبا
دون أن تأخذهم به رحمة أو شفقة
تمهيدا لنزوله إلى عالم الأموات
عندما أدرك "تموز"ما هو فيه من
محنة وشقاء
راح يشتكي للآلهة ما فعلته به .
ذهب إلى صهره "أوتو" إله الشمس:
ـ"إيه"أوتو"
أنا صديقك أنا الفتى الذي تعرفه
اتخذت أختك زوجا
فنزلت إلى العالم الأسفل
لأنها نزلت إلى العالم الأسفل
استبدلتني بها لأكون عوضا عنها
في العالم الأسفل
إيه "أوتو"، أنت القاضي العدل

لا تدعني أموت ."
ولكن العفاريت لم تتراجع عن تعذيب الإله المنكود
رغم هروبه واختبائه في إحدى الحظائر.
لاحقوه .
دخل الحظيرة العفريت الأول
وضرب خدود "تموز" بمسمار طويل نفاذ
وتبعه إلى الحظيرة العفريت الثاني
فراح يضرب وجه "تموز" بعصا الراعي
ثم دخل إلى الحظيرة العفريت الثالث
وأزال ما في الممخضة ورماها خاوية
وتبعه إلى الحظيرة العفريت الرابع
فرمى الكوكب المقدس عن مشجب تعليقه
ثم دخل الحظيرة العفريت الخامس
فحطم الممخضة الخاوية من اللبن
وكسر الكوب
"تموز" لم يعد من الأحياء
وحظيرته قد راحت نهبا للرياح .

الفصل الخامس

طقوس مأتم "تموز"

كان "تموز" قبل أن يرحل إلى العالم الأسفل
قد أحسّ دنو أجله كان قلبه مفعما بالدمع
مضى إلى الصحراء ...
شدّ إلى عنقه الناي وصاح نادبا :
"أقيمي مأتما،
أقيمي مأتما أيتها الصحراء
أقيمي مأتما بين سراطين النهر
أقيمي مناحة
ولتنطلق من أمّي صرخة عويل
يوم أموت لن يكون عندها من تهتمّ به.
على الصحراء، مثل أمّي عيناي
تسكبان الدمع، مثل أختي الصغيرة،
عيناي تسكبان الدمع" .
وقد ظلّت الصّحراء تردّد تلك
المناحة طوال غيابه .
ناح الحصّادون "تموز" في حقول الربيع
وتمثلوا ميتته القاسية و عذاباته وآلامه
وحمّلني العامّة والخاصّة إثم موت
تموز ووزره .
ونسوا كيف نزلت عالم اللاعودة من
أجله

ونسوا الحلّة الفاخرة التي كان يلبسها
والعرش الفاخر الذي كان يعتليه
بينما كنت خرقة مرمية في العالم الأسفل.
ولم يكتف العباد بالإبقاء على تموز
ضحية مسكينة في قلوبهم
بل حولوه إلى بطل
وطرف مهم في ملحمة الفداء،
يمضي إلى الموت ببطولة لينجز دوره :
"انهض أيها البطل
وامض في طريق اللاّرجوع...
هاهو يغيب ...هاهو يغيب في حضن الأرض ...
سيغمر أرض الأموات بالخيرات العميمة
امض أيّها البطل
إلى الأرض البعيدة خلف الأبصار ."
عيّرني عشيقي القديم جلجامش
ـ البطل الشمسي ـ بكل عنجهيته الذكورية
متحديا مقام الآلهة، يذكرني
بمسؤوليتي عن مصير تموز :
"أي حبيب أخلصت له الحبّ إلى الأبد؟
وأي راع أفلح في إرضائك على مرّ الأزمان؟

على تموز زوجك الشاب
قضيت بالبكاء عاما إثر عام."

ولأكفّر عن ذنبي :
خدشت وجنتيّ، مزّقت فمي
نظرت إلى خاصرتي، شققت ثوبي
صدر عني نواح مرّ على السيّد المعذب
وبكيت كل سنة وعبادي على تموز القتيل
كنت أفتتح المناحة كل عام بنفسي
لتشاركني فيها جموع الندّابين :
"ذهبوا بزوجي الحبيب, زوجي الحبيب
زوجي ذهب يبحث عن طعام،
فتحول إلى طعام عريسي اقتيد إلى الأسر
لم يعد يستحم في "أريدو "
لم يعد يعامل أمّ إنانا كأمّه
لم يعد يؤدّي مهمته الحلوة بين عذارى بلدته
لم يعد يتنافس مع فتيان بلدته
لم يعد يتقلد سيفه بين "كرجرا" بلدته
النبيل الذي لم يعد غاليا على أتباعه "

وكنا نقيم أيّاما مخصوصة للمناحات إحياء لذكرى "تموز" كل سنة في مختلف المدائن السومرية نؤدي الطقوس ومراسم الحزن المنصبة على موته وكنت أبقى وحيدة إلى مرقد تموز حينما تنام الندابات تعبا لأغني نائمة :

"أنت يا من ترقد أيّها الراعي
أنت يا من ترقد قم ارع شؤوني
تموز أيّها الرّاقد قم ارعها
نهارا منتصبا فلترع شؤوني
ليلا مضطجعا، فلترع شؤوني"

الفصل السادس

صرخة عشتار

غير أن النواح وحده لا يعيد الإله الميّت
كان لا بدّ من قيام الإلاهة نفسها
بتخليصه من ربقة الموت
ولم يكن هناك حل سوى النزول
بنفسي إلى العالم السفلي مرّة
أخرى واستعادته من أريشكيجال
أريشكيجال التي فرحت
وتهللت أساريرها عندما علمت بنيّتي
العودة إلى العالم الأسفل مكسورة
منزوعة من زينتي،، وثيابي،
مسلوبة من صولجاني
ومن تعويذة الولادة المرصّعة على صدري
مخلوعة من تاج رأسي .

***

كنت أعد نفسي
للنزول إلى العالم الأسفل
وقد أخذني دوار ...
أحسست شيئا يتخبط
في أحشائي ويصرخ :

"لا تنزلي إلى العالم الأسفل
لا أريد أن أولد في العالم الأسفل
لا أريد أن أولد في الظلام
لا أريد أن أولد في عالم أريشكيجال
أيتها الأم الكبرى
لا تنزلي
إذا نزلت من سيعمّر الأرض بعدك -؟
أنت الأم الأولى
ولدت كل البشر من رحمك
وأنت ملكة الكون
إيقاع جسدك ينبض كما إيقاع الطبيعة
أنت الأم وأنت الأرض
أنت الأنثى وأنت الخصب
أنت الزرع وأنت القمح
أنت الحياة وأنت الولادة التي لا تنضب
يفيض جسدك بأجساد أخرى
كما تفيض الطبيعة بكل ما حولك
كما تفيض الأرض بالزرع والشجر والثمر
أيتها الأم الكبرى
برحمك اتسعت ذاتك إلى ذوات أخرى
ازدوجت جسدا ونفسا مع الآخرين وتكاثرنا

اكتشف الرجل ذلك فذهل
وخرّ راكعا تحت قدميك .
يهب جسدك طفولة الانسان
دفء وأمنا، سكنا وسلما
لا أمّ لنا إلا أنت
إذا نزلت فقدنا فردوسنا إلى الأبد .
لا تنزلي إلى عالم الأموات
أنت الرحم الكوني
مصدر كل حيّ
تسحبين الإنسان من بطنك
التفَّ حولك النساء والرجال
وتشكّلت أوّل وحدة إنسانيّة
هي الخلية العائلية
استقال منها الأب مبكرا
واختار الكون الخارجي
أيتها الأم الكبرى
أنت وحدك تعلمين أن عاطفة الأم
نحو أولادها
وعاطفة الأولاد نحو أمهم
هي العاطفة الأصلية الأولى

وكل ما عداها كذب وزيف
أيتها العظيمة
لا تنزلي بي إلى العالم الأسفل
فأنت على الأرض سيّدة الأشجار
والحيوانات والأفاعي
مستوية على الجبل البدئى
تحملين الرمح والصولجان
أنت مصدر الأشياء وسند الأحياء
مالئة الكون بالخصب وأسباب النماء
كنت الطبيبة الأولى .
بسبب بحثك الدائم عن الأعشاب والجذور
حتى تعلمت فنّ خصائصها
السحرية في شفاء الأمراض
وأنت أول من سمع صرخة جوع
الرضيع الأولى و صرخة عطشه .
حوّلت الزرع إلى غذاء
ويوم اكتشفت الزراعة
بسبب تنقيبك الدائم
عن الأعشاب كغذاء
كان الرجل تائها ـ ولايزال ـ
متنقلا من مكان إلى مكان

ملاحقا الطرائد في عصور الصيد الأولى
صانعا الدمار في عصور الحرب الأخيرة
كنت الكاهنة الأولى
والعرّافة الأولي
والسّاحرة الأولي
بأسلحتك السلمية جعلت الجنس
الأضعف بدنا
أقوى قدرة وخلقا
كنت المسؤولة الأولى
عن حياة الأطفال وما زلت
رغم كل الانقلابات التي حصلت ...
أنت أول من أحسّ برجفة
الوليد حين ولد
حوّلت جلود الحيوانات إلى
ملابس وأغطية ومفارش
فكنت النسّاجة الأولى
تحيكين نسيج الحياة .
وتغزلين خيط القدر .
ملكة الأرض
وملكة السماء
ولدت البشر والآلهة

تختفي الشمس كل مساء
فتولدين منها كل صباح جديد
أنت القمر الخصب
أمّ الأعشاب ومعلّمة النساء
تشبعين الأرض وتزرعين الحقول
حتى دم النساء ينمو ويتناقص
حسب ضوئك
تتحاشاه الصبايا حتى لا يصبحن كبيرات.
أنت التي أظهرت للنجوم طريقها
وأنت ضوء الشمس والقمر
والبصيرة والبصر "

***

رقصت عشتار فرحا
لما علمت بما يتحرك في بطنها
ثم ناحت ألما على فراق تموز
ودّت لو زفّته بنفسها الخبر
ثم صرخت:
"كل ألوهيتي وعزّتى وجاهي

لا يساووا شيئا
إذا لم يكن تموز بجانبي
يعزف الناي من أجلي
ويسمعني لحن الحبّ "
دوّت صرختها في أرجاء العالم السفلي
انتفضت أريشكيجال ونادت وزيرها
"نمتار "
ـ "امض يا نمتار
واقرع باب "الإيجالينا ."
زيّن العتبة بحجر الأريتو
ادع ـ الانا نوكي ـ ودعهم يجلسون
على عروشهم الذهبية
لإرداء عشتار جثة هامدة
ورميها بعيدا
أمّا تمّوز زوجها الشاب
فخذوه واغسلوه بماء طهور
وضمّخوه بالعطور الطيبة
ألبسوه عباءة
ودعوه يعزف نايه اللاّزوردي
ولتحط به كاهنات المعبد يهدّئن
من خواطره

فالرّبيع ينتظره .
يصل تموز بحلّته الطقوسية في موكب
تحيط به عذراوات المعبد
بأيديهن الشموع وسط غيمات "البخور "
تصيح أريشكيجال
"أفسحوا له طريقا إلى العالم الأعلى
لقد أصبح طليقا "
ـ تموز يرفض الخروج بمفرده
يتّجه نحو عشتار
يمسك بيدها
يلتفت إلى أريشكيجال
"لن أخرج إلاّ مع عشتار "
تنتفض أريشكيجال غيضا
تصيح في ـ الأنانوكي ـ ...
لكن تموز وعشتار
كانا قد خرجا .

شهادة الكاتبه عن سرّ كتابة " عشتار "

أو الأسطورة المخاتلة للخلود

(قدمت في ملتقى الرواية بالقاهرة 2015)

كان حظّا جميلا أن أدرس فلسفة الاغريق في رحاب حضارة بلاد الرافدين وكنت أُقبل "بهمّتي" على كشف رموز الميثولوجيا الرافدية التي تتقاطع مع الميثولوجيا اليونانية وفك رموزها و أسرارها... و الاساطير بحر تنوّع مغر و عميق،... تغوي دارسها وتأخذه في لولب مداراتها حتى يصبح جزء منها و يتحول الى عنصر من عناصرها وفي ملحمة الخلق الاولى في الميثولوجيا القديمة...

و كان أن وقعت، في اسر حكايات وأساطير الأولين التي تروي أقدم المغامرات الإبداعية للمخيّلة البشريّة.

وقد سحرتني تلك المخيّلة الولّادة والخلاّقة التي ما انفكت تبدع و تبتكر مغامرات جديدة وتسرد حكايات البدايات الأولى و العصور الغابرة..... وقصص الآلهة و أنصاف الآلهة. و البشر و أنصاف البشر، عن الوجود و الخلود، عن حقيقة الكون و الكائن، عن الحقيقة الكلية، عن المطلق....كنبع هادر و قد انفتح على المدهش و العجائبي والغرائبي و الخوارق و المعجزات..... ووجدت نفسي أدور ضمن دوّامة مسكونة بحكايات و أساطير، ألقتها من بعيد سماوات مدارات الجنون، والأحلام، والسعادة، والسلطة، والخصب، والشقاء، والقوة والضعف، والجنس، والأنوثة، و الأمومة.

كيف لي أن اخرج منها دون أن أصبح جزء منها و سرّا من أسرارها التي تغري بالغوص في أعماقها لسبر أغوارها و كشف حجب هذا العالم المليء الثري بالرموز و الدلالات... .

لتظلّ الأسطورة الشاهد الأبديّ على الشرط التاريخي لعصرها و على قدرة الإنسان في أن يتملّك زمانه تملُكا معرفيا و جماليا و فنيا .

و بدأت لعبة استدعاء و استحضار رموز و شخوص الأساطير الغابرة الموغلة في القدم. وعملية بعثها و إحيائها وإخراجها على خشبة مسرح الحياة من جديد و التفنن في إكسائها حللا طقوسيّة جديدة مناسبة لأدوارها الجديدة...

و كانت الإلهة "عشتار "هي الحاضرة الأقوى على مسرح الأحداث ووجدتها رمزا مشتركا بين عدة ديانات وعدة حضارات: يتمثل بعبادة الربّة الأم نموذجا لتقديس روح الخصوبة الذي انتقل به العقل الرافدي من تربة الأرض إلى ملكوت السماء. فعملية الولادة قد مثّلت بالنسبة للإنسان في بدايته الفكرية حدثا عجيبا تختص به المرأة وحدها... .و لفهم الدورة الطبيعية

المتمثلة في الخصب و الجدب و تنوع الفصول كتب الإنسان أوّل ملحمة بطلتها " إنانا " عند السومريين و"عشتار" عند الأكاديين و بها فسّر كذلك مصير الإنسان بعد الموت من حيث نزول الميت تحت الأرض إلى العالم السفلي...و عند سيطرة " الفينيقيين " على البحر في ميدان التجارة بالخصوص: صارت تسمّى في كنعان " أنات " بمعنى الأنوثة (وانتبهوا الى ان الاسمين " انانا " و" انات " اقرب الى ان يتشابها) و في فينيقيا " استار ". و حمل البحارة هذا المعتقد إلى " أثينا " فسميّت " افروديت" و إلى روما فكانت " فينوس "و إلى إيران شرقا فكانت "سيّدة عيلام " و " عيلام " هو اسم إيران القديمة إضافة إلى الشعب العبري اليهودي و من أهم طقوسها موسم البكاء على تموز الذي سلّمته "عشتار" بدلا عنها الى الانينجا عندما خانها وقد وجدته يعزف الناي لامرأة

غيرها في العالم الأسفل... و في هيكل بني إسرائيل كانت تمارس طقوس عيد الحصاد الذي يوافق عودة الزهر الى الحياة و عودة الخصوبة ومنها أشغال عيد الفصح الذي يشترك فيه اليهود و المسيحيون في بداية الربيع: فصل التكاثر والتوالد، الذي يسمى في الانجليزية ب " ايستر" و في الألمانية "أوستيرن" و هي ليست إلاّ تحريفات ل " عشتار". و الزهرة عند العرب قد عُبدت عبر ثلاث آلهات: اللات و مناة والعُزّى و كانوا يرمزون إليها بثلاث شجيرات كناية عن الخصب كما أن العُزّى كانت تمثالا رمزا يُحمل عند الحروب فهي إلهة تشارك في الحرب أيضا.

هذه إحدى خاصيات الزهرة و قد امتد ذلك إلى الإسلام ووجد سندا له في احتفاء القرآن الواضح بالأجرام السماوية و الكواكب السيّارة كما أن تقديس يوم الجمعة يوافق عند البابليين يوم الزهرة

المقدس (venus – vendredi) ونلاحظ ذلك حتى اليوم امتداد هذا الاعتقاد في بعض مآذن المساجد المزينة بشكل هلال و بداخله نجمة ذات ثمانية إشعاعات و هي رموز الزهرة. كل هذا يجعل "عشتار" أكثر الآلهة انتشارا ورمزا مشتركا بين كل الحضارات تقريبا. و هي حاملة رسالة جماعية تجعلها حقلا معاصرا لأفكار حديثة تشمل بقاع الارض... هذا ما ساعدني على بعثها من جديد من خلال تجميع شتاتها المبعثر في عدة حكايات ثمّ تفكيكها وإعادة تركيبها و كتابتها من جديد... دون إهمال اختيار الشخصيات الحافة بالأسطورة وتوظيفها، وإعطائها أدوارا جديدة أيضا... لتدفع بدماء معاصرة للأسطورة الأم وتعطيها رموزا أخرى تتماشى مع معالجتها البشرية و إحالاتها على عوالم الأنثى اليوم.

كنت معنية بتجديد الملحمة، وتجديد حكايات الموروث فيها وتجديد أفق النظر إلى بناء اللغة في بُنيات دلالة النص في أنساقه المتماسكة وإعادة قراءة كل الأبعاد الموجودة سلفاً في النصوص السابقة عن زمن الكتابة، ليتخذ زمن التجديد بفعل هذه العلاقة الجديدة أبعاده المحتملة من احتمالية إنتاج العلامات والرموز الخالدة التي نفخت الحضارات المتعاقبة في روحها عمقاً إنسانياً تملّكت به قوة بقائها، وحافظت على ديمومتها في كل الأزمنة والأمكنة. و قد عمدت شخصيا إلى الاشتغال عن الخطاب الأسطوري الرافدي فنفخت فيه من روح العصر ومن روحي في هيكل الشخصيات لأُنطقها بمعاني العصر في لغة الدهر لتواصل الأسطورة دورها في عصرنا الحاضر...

و لعلّ قدري كحفيدة من حفيدات شهرزاد سيّدة الحكّاءات على الإطلاق

أن أواصل فن الحكاية التي أورثتني إيّاها عن طريق جدتي التي واصلت بفطرتها الأولى سرد الخرافة... لأجل عيون " شهرزاد" ملأت جدّتي طفولتي حكايات و وعدتها منذ صغري أن أملأ بدوري الدّنيا حكايا ايضا. خاصّة بعد تلك الليلة التي وضعتُ فيها رأسي على ركبتها و هي تهدهدني لأنام وتحكي لي...و تردّد بين حكاية و حكاية " لن تفنى الكلمات... لن تفنى الكلمات... ." هي تعرف أن شهرزاد خبأت كل الحكايات في جرابها الذي لم يُدفن معها و ما علينا غير النبش قليلا لدغدغة عظام الموت لتنفجر الحكايات بكل قوة الحياة...

و لكنها نامت تلك الليلة و هي في عز الحكاية... لتترك لي حريّة النهاية ولتكون سلاحي و أنا اشق طريقي وانشد الحياة...

و لذلك كان الإهداء في " عشتار" أكثر أسطورة متجددة عبر الزمان و عبر

الحكاية: "إلى جدتي التي بدأت لي حكاية و هي تهدهدني لأنام فأخذها النوم وهي في عز الحكاية و لكنها لم تفق بعدها...إليها أواصل بقية الحكاية التي لن تنتهي لأنني سأنام مثلها في عز الحكاية."

الحكاية المخاتلة لزمن الحكي، المخلّصة من العدم و الموت. واهبة سر الخلود كضرورة لاستمرار الحياة. سأواصل حكاية " سيّدة الأسرار: عشتار " حيث لا بداية للجسد. لانهاية للروح. و حيث شهرزاد كل يوم جديدة، تغزل طقس الحكاية من نسيج خيوط العتمة كل ليلة، كشاهد ابدي على شهوة الحكاية للتجدد... وشهوة الفن للحياة حارسة الليل وواهبة الأنس تعيد للروح شهوة الحب و ترجع للجسد شبق الحلم المحرّم.

شهرزاد ملكة الحكاية تمسك صولجان الكلمة بيدها و تقبض على سرّ الحرف الوهّاج و تعلّمنا أسرار الليالي في

مقاومة شهوة الموت عند مليكها شهريار. و لا غرابة أن يكون تمثال شهرزاد منتصبا في شارع أبي نؤاس قلب بغداد النابض، في بلاد ما بين النهرين كشاهد ابدي على قدم الحكاية ببلاد الرافدين و تجدّدها كما نهر دجلة الهادر، واقفة غير راكعة أمام شهريار الحاكم بأمره، المتكئ على أريكته، ظهره إلى النهر و عيناه إلى شهرزاد و شهرزاد عيناها إلى النهر يركض الموج بخيالها من دهشة إلى دهشة لا تنتهي...

شهرزاد التي ملأت الدنيا حكايات وأثّثت ذاكرتنا ووجداننا بقصص عالم عجائبي تفرّدت وحدها دون نساء الأرض بابتكاره: عن التاريخ القديم وأخبار الملوك و السلاطين و الإنس والجن والإنسان والحيوان واللّصوص و الشّطار و الحكماء والأطباء و الأبطال ورجال الدين والدنيا و الخير و الشّر... واقفة الآن بحدائق دجلة بقلب شارع ـ

أبو نؤاس ـ أو شارع الشّعراء والعشّاق منذ _ مرّا _ به عشتار و تموز: قلب بغداد النّابض بالعشق والشّعر والأنس و الطرب و الفرح و السّهر و السّمر... تشتهي لو تعود بها الحكاية إلى جديد اللّيالي، بعد أن ملّت الهجرة خارج الحكاية، معلّقةَ بفراغ الغياب. تبحث ألان عن غواية جديدة تعيش على وقعها، ووجود متفرد لجوهرها الأنثوي الاستثنائي. تبحث في عيون حفيداتها عن بداية جديدة للخلاص من صمتها الذي طال. تبحث عن الدهشة في روح أهل هذا الزمان و هي التي تعرف أكثر من غيرها أن وجودا بلا دهشة هو هوّة و سقوط في الفراغ.

لعلّني بتجديد كتابة " عشتار" بلغة " عشتار " أردت أن أعطي مشروعية لنصي أصلا و هو عدم اكتمال الحكاية وانفتاحها الدائم على الممكن وهو يحلق لبلوغ المستحيل... و كأننا أمام حكاية واحدة مستحيلة النهاية تتناوب

على روايتها النساء عبر العصور... .من ناحية. و لخطورة الحكي من ناحية أخرى بصفته صائد أرواح (على حد قول احد النقاد) فنحن نموت دون أن تكتمل الحكاية، نموت في عزّ الحكاية ليضمن فن التشويق بقاءه في بداية حكاية أخرى لحتمية أخرى...

ولعلني بذلك أيضا أعطي الكلمة للمرأة، في الليلة الثانية بعد الألف. المرأة التي تختنق كل ليلة بغصّة الكلمات... أردت أن أعطيها فرصة البوح و إخراج ما بباطنها من مكبوت و من كلام غير مباح. في المجتمعات المنغلقة على قيمها المسدودة ..

و لعلي ايضا باعادة كتابة "عشتار" كصلة موصولة بالعلاقة الوجودية، بتجديد عملية الخلق، أدافع عن أنوثتي بخصوبة لا تفنى، بتجديد الكتابة نفسها، بالولادة الإبداعية أدافع عن حبّ الحياة عشقاً، لديمومة الكاتبة بالكتابة،التي هي الحياة الأخرى للذات

الأنثوية.

لعلّ هذه العلاقة بين الولادة والإبداع هي التي حدّدت معنى هذا الاختيار وهذا التميّز بين ولادة و ولادة، بين حياة و موت، بين بقاء وخلود و فناء، بين الحياة بالإنجاب،والحياة بالإبداع، لمدّ شعرة الاتصال بين بذرة الحياة والخصوبة، وبذرة الموت والعدم .

لقد أعدت خلق الأسطورة من جديد في نفس سردي يَشعُر فيه، القارئ أنه يتابع أحداث هذه الأسطورة لأول مرّة في نص حسبته مسرحيا لكنه في الحقيقة عصيّ على التجنيس إذ هو يتعالق مع الشعر في تشكيله البصري ذلك ان المسرحية كلها قصة حب درامية بين عشتار و تموز و مع الرواية في نسيجها السردي ومع الملحمة في حبكتها الدرامية والتراجيدية حسب تصنيف النقاد و قد أعجب به المخرجون أيضا و حاولوا تجسيده على خشبة المسرح

و لم يكن صدفة أن أختار خشبة المسرح لبعث شخصية عشتار ذلك أن المسرح يكرس الصورة البشرية للشخصية الرئيسة في العمل و ذلك ما قصدته فعلا: "أنسنة الآلهة " والنزول بها من عليائها و تقريبها من الناس فقد كان المسرح دائما مدرسة الشعب. والعالم كما يقول شكسبير" كله مسرح و الرجال والنساء جميعا ممثلون لا غير،و لكل دوره في الدخول والخروج" و إنما يُقبل الناس على المسرح برغبتهم في رؤية أنفسهم مجسّدة أمامهم، إذ الفن كما يقول هاملت"أشبه بإقامة المرآة أمام الطبيعة لكي تعكس للفضيلة محياها وللرذيلة صورتها ولجسد العصر والمجتمع شكله و أثره" و عشتار ليست الا وجها من وجوهنا الخفية .

خاصيّة نص هذه المسرحية هو أن محور الحكي ومركزه، والفاعل فيه، هي عشتار نفسها، فهي تحكي،

وتفعل، وتحرّك الأحداث بإرادتها، وتؤثّر فيها، وتوجّهها برغبتها وبأنوثتها المتحكمة في الدراما، وهي القادرة على تبادل الأدوار مع باقي الشخوص لتكون هي البداية، وهي النهاية، وهي التي تصدر الأمر، وهي التي تنفّذه، وهي المتكلّمة والمتحكمة في لغة الكلام، وهي التي منحت تموز الصولجان والمحجن، وحكما عظيما مجيدا، و عرش المُلك على أساس مكين، واعطته القدرة على تدبير شؤون الناس، وتاجاً لا يبلى، ووضعت فوق رأسه إكليلا من نور. وهي رمز التضحية إنقاذا لحبيبها تموز لتستعيده من العالم السفلي: عشتار سلطة مطلقة .

أنســـــــــــة الالـــــــهة

كانت البداية في اختيار العنوان "سيّدة الأسرار" كان نعت هذه الشخصية الأسطورية "بسيدة الأسرار" رغبة معلنة للخروج من دائرة المعلوم إلى المسكوت عنه لتطرح هذه العتبة النصية أسئلتها الكبرى التي ستدور حول سؤال محوري: مرّة أخرى
ما الذي سيكشفه هذا العمل الأدبي من أسرار جديدة في أسطورة مفضوحة في المتون والمدونات القديمة و الحديثة؟ كما تساءل احد النقاد *و قد أدرك غايتي تماما.
لقد أردت من الوهلة الأولى نزع تاج الربوبية عن "عشتار " ربة الحب والخصب من ناحية و أنسنة الأسطورة من ناحية أخرى و خلع بردة السيادة عليها... ومن ثم فقد

خرجنا من إطار شخصية معلومة نحو شخصية أخرى بهوية جديدة... وأصبح لكلمة الأسرار في العنوان معنى.

و أصبحت الإلهة "عشتار " في المعبد " ملكة " تستوي على عرشها دون أن اجردها من إكسسوارات السلطة: تاج السهول و الصولجان و الختم.....

"في معبد من المعابد القديمة لمدينة سومر

عشتار ملكة تستوي على عرشها يشع من محيّاها الألق والبهاء

بعدما وضعت على رأسها تاج السهول،

لفت جسدها بطيلسان السلطة،

قبضت بيدها على الصولجان اللازوردي ومسكت الختم. "

و تَمثُل المكان في اختيار المعبد والإبقاء عليه كما هو في الأسطورة تماما، يؤشر إلى أجواء طقوسية يستوي فيها الإنسان مع الإله

ليتحول إلى مركز الكون و نواته. وهذا انحراف عن مسار المدارس الطبيعية التي تستلهم المبادئ القانونية من مصادر تعلو على الإنسان: كما كانت فيها " عشتار" في معبدها رمزا و تَمثُلا مطلقا للسلطة كقوة روحية تسري في الجسد الجمعي وتستمد قوتها وتأثيرها من خلال الاستحواذ على الروح الجماعية. يؤدي التمشي المكاني إلى وصف المشهد الطقوسي الذي يمنح عشتار السطوة و هي في حل منها "
تجري أحداث مسرحية "سيدة الأسرار " في معبد من المعابد القديمة لمدينة سومر، لتنطق لغة النص تاريخاً ينتمي إلى التاريخ، وتتكلّم أسطورة تنتمي إلى أسطورة، وتقرأ الملاحم لتعرف مكونات ملحمة عشتار وتموز، وتقترب من عشتار التي تنتمي

بأنوثتها الإيروسية إلى الجمال، والحياة، والعشق، والشهوة الفيّاضة وكأنني أحاذي عشتار و أكتب ما هو أسطوري تحقيقاً لرغبة دفينة في عمق النفس الأمارة بكتابة موضوع المرأة المعاصرة، والناهية عن الدفع بالكتابة إلى البقاء حبيسة ما هو معروف ومألوف،في المتون من ناحية و الرغبة أن أكتب مأساة عشتار من ناحية أخرى: (مأساة بحجم الآلهة)

والإجابة دراميا عن ذلك السؤال الذي طرح نفسه بقوة في أول النص:

(من قال إن الآلهة لا تحتاج إلى لحظة البوح؟ من قال إن قصص الآلهة أقل مأساوية من قصص البشر)عشتار ص 20 ط 1

"تطوف بها عذارى المعبد مسدلات غلالاتهن الشفافة على وجوههن،

لابسات حللهن الطقوسية، هائمات حبا، فانيات تعبدا
وسط غيمات البخور واللبان
المحروق، يرقصن على إيقاعات نقر يعلو ويخفت، ينبعث من طبلين كبيرين أمام وصيفتين تجلسان في مقدمة الخشبة واحدة جهة اليمين وأخرى جهة اليسار.
والزوار يسكبون عطر الناردين أمام الإلهة عشتار المجسّدة في شخص الملكة، يرشون زيت الزنبق عند قدميها ويحرقون العنبر البحري.
يتوافدون محملين بسلال عنب التلال وتفاح البساتين ومشمش الجنائن وبرتقال السهول.
و فجأة و بإشارة من الإلهة عشتار تتوقف كل حركة، تخر العذارى ساجدات.
و من صمت المعبد المزلزل تصرخ بي عشتار:
اكتبي

اكتبي باسم الربّة عشتار:
اكتبي لنحطم جدار الصمت بالكلمة
اكتبي،
لعل الكلمة تشفي الغليل وتجمعني بالخليل
أكتبي
في البدء كانت الكلمة، جسدا ووجودا، ائتلافا واختلافا، كانت الكلمة دائما تحدس تفاصيل الأشياء في عقلها الأعمى، وتمنحها تميزها، وتحيزها الكوني كممكن وجود، يروم اشراقات واجب الوجود.
اكتبي:
أن الربّة قد ضاقت ضرعا بألوهيتها وإنها تشتهي لو تخلعين عليها ثوب امرأة نورانية:
تحرك القلم في يدي:
"لبّيك عشتار لبّيك مليكتي ،
و موقدة أحرفي..."
و كان أن أوحت لي ما أوحت... .

حينها قمت فتوضأت و اغتسلت من طقوس العبادات القديمة السابقة على الزمن "العشتاري".
ناديت وزيرة الملكه عشتار " نيشبور" التي فهمت أوامري دون أن انطق بها:
تقدمت نيشبور الوزيرة نحو مقدمة الخشبة:
ـ " اليوم يتوقف كل شاك عن الشكوى وكل داع عن الدعاء وكل ناذر عن النذر وكل متضرع عن أي ضراعة، اليوم تنقلب الأدوار وتتبدل المواقع... من أجل سماع قصة عشتار: مأساة بحجم الآلهة.
من قال إن الآلهة لا تحتاج إلى لحظة بوح؟
ومن قال إن قصص الآلهة أقل مأساوية من قصص البشر؟ "

الانقلاب العشتاري العظيم

كانت نيتي المبيتة أيضا قلب الأدوار بين الآلهة و البشر. الآلهة التي احتفظت هي بالخلود و أعطت الموت للبشر. على حد تعبير جلجامش... في الحقيقة كنت أريد أن انتقم و أخلع الآلهة عن عرشها وأنزل بها إلى الأرض لتحس و تشعر بآلام البشر... .

آلهة تحمل خصائص البشر من فرح و حزن و غضب و بوح و غيرة و كره وحب... .

و ان أفسح لها المجال و أهديها القول لتبوح بقصتها "

من قال أن الآلهة لا تشتهي ثوب امرأة؟ و ان تعيش تحت جلد البشر؟

عشتار تخرج عن صمتها و قد خلصتها من حبس عليائها و جردتها

من تاج ربوبيتها الذي كان يثقل رأسها.
حينها رأيت عشتار و قد خفّت ونشطت و قد تحرّرت فانزاحت عن كرسيّ عرشها. و بحركة لم أخططها لها تماما ارتمت فجأة بين صفوف المتفرجين:
" امرأة مثلكن أنا
امرأة من سلالة الآلهة
و لكن من نسل النساء
أحببت فتألقت و توهجت نيزكا في الظلام
ثمّ في العالم الأسفل سقطت "
مستسلمة لغواية الحكي أتوارى انأ كذات كاتبة لأعطي الكلمة لعشتار وقد عدت بالقارئ إلى بداية حكاية عشق عشتار لتموز...
و جلست و إياه مكان المشاهد نتابع معا الحكاية البكر في بساطتها الأولى على الفطرة، مستعذبين سذاجة الأسطورة وسردها الآسر ليعبر بنا الأزمنة

والعصور ليجعلنا في مأمن من أنفسنا نتابع الحكاية مثل الأطفال مأخوذين بسرد عشتار المشوق لحكايتها في لغة شعرية شفيفة يفوح منها عبق الخطيئة الأولى:
الحكاية الأولى: حكاية الرجل الذي يؤسر بالحكي...
أتدخل أحيانا لأهدهده (ذلك الرجل \ الطفل) ببعض الترنيمات أو القصائد الغنائية من ألواح هذه الملحمة القديمة لينام حالما بسحر بداية الخليقة في بداية الحكايات... .و الحقيقة أنني كنت ألاعبة من خلال حياكتي لفن التشويق القصصي و أتفنن في اللعب بأنفاسه ليبقى يلهث عبر كامل النص خلف متعة التلصص على تفاصيل البوح الذي تمارسه "سيدة الأسرار" و هي تعلن عن شبقها الكبير... بعيدا عن عين الرقيب.

كنا نستمتع انأ و القارئ و المشاهد في هذه المسرحية بكتابة إيروسية متحررة، غاية في الشفافية تروي قصة حب عظيم عاشته ربة الحبّ و الخصب و لكنه في النهاية: الحب العظيم الذي تحلم به كل امرأة و كل أنثى.و كل رجل أيضا. نصُ كتب بحبّ في مديح الحبّ.

و لا أخفيكم أنني أردت نص" سيدة الأسرار" أن يكون نصا في مديح الأنوثة أيضا و هذه من نوايايا المبيّته في إعادة إحياء قصة عشتار لأحمل القارئ إلى زمن آخر غير زمنه: زمنا كانت الأنثى فيه آلهة و سيدة وسلطة مطلقة و كان الجسد العاشق و المنفلت من القيود والأسيجة جسدا حرّا قبل أن يدخل دائرة المقدس و المدنس و الحلال والحرام أردت أن احلق و القارئ في عوالم بكر لم تدنسها قدم الثقافات التي أهانت الجسد فيما بعد...

قد أردته نصا في مديح الأنوثة و في مديح الجسد الحرّ.
نص طليق في مديح الشبق المطلق. يكتب أولى بنود دستور دولة الشهوة العظمى.
و كما الشهوة المتجددة تتجدد الحكاية و تبحث عن عاشق جديد يروي ظمأ الكلمات و شبق الربّة النازلة المنادية: (و قد كتب الروائي الرياحي نصا عن ذلك في مديح الأنوثة كان الأقرب إلى روح النص...)
مع الحب تابعنا مراسم الزواج المقدس، والموكب يتقدّم بنا باذخا في طقوسه بما يليق بملكة سومرية، طقس العرس الإلهي المقدس، في إيريك إحدى كبريات مدن سومر حيث اختار الزوجان أن يكون الزفاف المقدس.
نتابع عشتار و هي تستذكر مراسم عرسها... (الفصل الثالث من المسرحية: مراسم الزواج المقدس)

النهايـــــــــة

بعد بداية الانقلاب الكبير و قلب الأدوار لأنسنة الآلهة. جاء دور النهاية باختيار نهاية تختلف عن نهاية الأسطورة الأصلية القديمة و تقدم صورة جديدة للتراجيديا. ففي حين اقتضت الحبكة الوصول بالصراع الى ذروته حين طالب الزبانية عشتار ببديل عنها في عالم الأموات ووضعوا أمامها صورة تموز الراعي الماجن الذي استغل غيابها ليلهو مع الغانيات في حين كانت هي تتجرد من سلطانها وجمالها و كل أسباب قوتها لتنزل إلى العالم الأسفل من اجل إنقاذه...

و إن كان النص الأصلي يهدف إلى ترجيح ميزان القوة لفائدة طرف من أطراف الحكاية أو إرساء دعائم

ثقافية و اجتماعية قائمة على قوى الإيجاب (الحياة و الخير)و قوى السلب (الموت و العدم) أو على الثنائيات التقليدية القديمة (السماء و الأرض: العالم الأرضي و العالم السفلي : عالم عشتار الإلهة الخصب و عالم ارشيكجال الاهة الموت والجدب)

فقد حاولت في نصي أن أتجاوز كل ذلك لأجعل منه ملحمة لامرأة الألفية الثالثة . فلا فصل تعسفي بين عوالم ولدت مرتوقة و لكن تفاعل و تواصل يتجاوز لغة الجنس إلى لغة الإنس لغة الإنسان بعيدا عن عقلية الثار، للتخلص من براثن القبيلة . اقترحت السمو و الصفح الذي يليق بالإلهة عشتار.

عشتار و إن كانت سلطة مطلقة في كامل الحكاية أو المسرحية فإنها لا تريد أن تبقى وحيدة في هذا العالم...

و ليست النهاية سوى موقفى الخاص من علاقة الرجل بالمرأة كما تلخصها عشتار في آخر المسرحية عندما تقول:
"كل الوهيتي و عزّتي و جلالي لا يساووا شيئا إذا لم يكن تموز بجانبي يعزف لي لحن الحبّ، و لا يرى امرأة غيري. "

حياة الرّايس

التعريف بأسماء الآلهه

عشتار: إلهة الحب و الخصب عند البابليين وهي إنانا عند السومريين و كثيرا ما يتداخل الإسمان في الحضارتين.و عشتار تعني– عيش الأرض– عند البابليين وهي إلهة السماء أيضا و عابرة السماوات و نور السماوات.عشتار هي أشتار: التسمية السامية لإنانا و إشتار هي نفسها "أستير" المذكورة في العهد القديم. و عشتار هي كوكب الزهرة ابنة إله القمر-سن- و يعادلها عند الإغريق أفروديت و عند الرومان فينوس .

تموز: إسم دموزي كما جاء في "الكتاب المقدس" وهو إله راع تقدم لخطبة عشتار إلهة الحب و الخصب وقد اقترن إسمه باسمها وبقضية الخصب أيضا فكان يسمى إله الخصب والزراعة دون أن يكون هو نفسه إله زراعيا .

سن: إله القمر لدى أهل الرافدين وهو ابن الاله ـ إنليل ـ الهواء من حبيبته "ننليل" ولسن اسم آخر هو "نانا "

إنليل :إله الهواء والعاصفة عند السومريين

أريشكيجال: إلهة العالم الأسفل في بلاد الرافدين. سيدة مطلقة للعالم الأسفل لها أسماء أخرى "**أرجالا**" و"كيجال" كانت فتاة عذبة وإلهة سماوية اختطفها الإله "كور" وحش العالم الأسفل لتعيش معه هناك وعندما قتل في إحدى معاركه الكثيرة أصبحت سيدة مطلقة للعالم الأسفل .

أنكي: إله المياه العذبة الباطنية والمتحكم المطلق فيها يفجرها أنهارا أو ينابيع في نظام محكم بديع وهو المتحكم المطلق أيضا في مادة الطين الأليفة لديه باعتباره يسكن الأعماق المائية.وهو إلى جانب ذلك إله المكر والدهاء والحيلة تماما كالماء الذي يعرف طرقه

وقنواته متحايلا على الحواجز و العوائق كما أنه إله الحكمة والمعرفة العميقة تماما كالماء الساخن .

جوجالانا: الرب زوج أريشكيجال أخت عشتار .

أوتو: إله الشمس عند السومريين وهو ابن إلاه القمر ـ سن ـ وحفيد ـ **إنليل** ـ الهواء الذي أنجب القمر من حبيبته ـ ننليل ـو"أوتو" إسمه عند البابليين و "شمس "وعند الكنعانين "شبش ."

الفهرس

مقدمّة عزّالدين المدني

الفصل الأول : قصة البوح.

الفصل الثاني : مراسم الزواج المقدس.

الفصل الثالث : النزول إلى العالم الأسفل.

الفصل الرابع : موكب العفاريت.

الفصل الخامس : طقوس مأتم تموز

الفصل السادس : صرخة عشتار

شهادة الكاتبة عن سرّ كتابة"عشتار "

التعريف بأسماء الآلهه.